الدُّنيا والدِّرهم

ـ ٤ ـ

قال أحمدُ بن مِسكين : وأزِفَ تَرحُّلي عن (بلخ) ، وتهيَّأتُ للخروج ، ولم يبق من مدَّة مَقِيلي بها إلا أيامٌ يجيء فيها السبتُ الرَّابع ، وكان قد وقعت مُمَاراةٌ بيني وبين مفتي (بلخ) أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الباهليِّ[1] تلميذ أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة ، ويزعمون : أنَّه شحيحٌ على المال ، وأنه يَتَغَلَّلُه من مُسْتَغَلَّات كثيرةٍ[2] ، فكأنَّما غَشِيَتْه غمامتي ، فهو لا يرى أن أتكلَّمَ في الزُّهد ، ويحسَبُ هذا الزُّهد تَمَاوُتَ العبَّاد ، ونَفْضَ الأيدي من الدُّنيا ، وسُوءَ المصاحبة لما يُنعِم الله به على العبد ، وخذلانَ القوَّة في البدن ، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالأباطيلِ التي زعَمَ : أنَّها أباطيلُ الطَّاعات ، وما أقرَبَها من أباطيل المعصية ! ولم يكن هذا المفتي قد سمعني ، ولا حضرَ مجلسي ، ولولا الذي لم يعرفه من ذلك ؛ لقد كان عرف .

وجادلتُه فرأيتُه واهنَ الدَّليل ، ضعيفَ الحجَّة ، يُخمِّنُ تخمينَ فقيه ، وينظر إلى الخفايا من حقائق النُّفوس نظرَ صاحب النَّص إلى الظَّاهر ، كأنَّ الحقيقة إذا أُلقيتْ على النَّاس مضتْ نافذةً كفتوى المفتي . . . ويزعم : أنَّ الوعظَ وعظ الفقهاء ، يقولون : هذا حرامٌ ؛ فيكون حراماً ، لا يُقارفُه أحد ، وهذا حلالٌ ؛ فيكون حلالاً لا يتركه أحدٌ ، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ، ومَدَاخله إلى النَّفس ، وسياستِه فيها ، ولا يعرف : **أنَّ الحقيقة كالأنثى : إن لم تُزَيَّنْ بزينتها ؛ لم تَسْتَهْوِ أحداً** ، وأنَّ الموعظةَ إنْ لم تَتَأدَّ في أسلوبها الحيِّ ؛ كانت بالباطل أشبه ، وأنَّه لا يغيِّر النَّفسَ إلا النَّفسُ ؛ الَّتي فيها قوةُ التَّحويل ، والتغيير ، كنفوس الأنبياء ، ومن كان في طريقة رُوحهم ، وأنَّ هذه الصناعةَ إنَّما هي وضعُ نور البصيرة في الكلام ، لا وضعُ القياسِ والحجَّة ، وأنَّ الرَّجلَ الزَّاهدَ الصَّحيحَ الزُّهد إنَّما هو حياةٌ تلبَسُها الحقيقة ؛ لتكونَ به شيئاً في الحياة ، والعمل . لا شيئاً في القول والتَّوهُّم ، فيكون إلهامُها فيه

---

(١) توفي مفتي بلخ هذا سنة (٣٣٩هـ) . (ع) .

(٢) « المستغلات » : أصول الأموال . وتغلَّل واستغلَّ بمعنى . (ع) .

كحرارة النَّار في النار : مَنْ وَاتَاها أحسَّها .

ولعَمري ! كم من فقيهٍ يقول للنَّاس : هذا حرامٌ ، فلا يزيد هذا الحرامَ إلا ظهوراً ، وانكشافاً ما دام لا ينطقُ إلا نطقَ الكتب ، ولا يحسن أن يصلَ بين النَّفس ، والشَّرع ، وقد خلا من القوَّة ؛ التي تجعله روحاً تتعلَّق الأرواحُ بها ، وتضعُه بين النَّاس في موضعٍ يكون به في اعتبارهم كأنَّه آتٍ من الجنَّة منذُ قريبٍ ، راجعٌ إليها بعدَ قريب .

والفقيهُ الذي يتعلَّق بالمال وشهواتِ النَّفس ، ولا يجعل هَمَّه إلا زيادة الرِّزق ، وحظَّ الدُّنيا ـ هو الفقيهُ الفاسدُ الصُّورةِ في خيَال النَّاس ، يُفْهِمُهم أولَ شيءٍ ألا يَفْهموا عنه ؛ إذ حِرْصُه فوق بصيرته ، وله في النُّفوس رائحةُ الخبز ، وله معنى : خمسٌ ، وخمسٌ : عشرة[1] . . . وكأنَّ دنياه وَضَعت فيه شيئاً فاسداً غريباً يُفسِدُ الحقيقةَ التي يتكلَّم بها ؛ ولست أدري ما هو هذا الشيء ؟ ولكنِّي رأيتُ فقهاءَ يعظون ، ويتكلَّمون على النَّاس في الحرام ، والحلال ، وفي نَصِّ كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، ثُمَّ لم أجد لكلامهم نفعاً ، ولا ردّاً ؛ إذ يُلْهِمون النَّاسَ بأرواحهم غيرَ المعنى ؛ الذي يتكلَّمون فيه ؛ وتَسْخَرُ الحقيقةُ منهم ـ على خَطَرِهم ، وجلال شأنِهم ـ بذاتِ الأسلوبِ الذي تسخَرُ به من لصٍّ يعظ لصّاً آخر ، فيقول له : لا تَسرِق . . .

* * *

قال ابنُ مسكين : فلمَّا دار يومُ السبت أقبل الناسُ على المسجد أفواجاً ، وكانوا قد تَعَالَموا إزْمَاعي[2] الرَّحيلَ عن بلدهم ـ وجاء (لقمانُ الأمَّة) في أشياعه ، وأصحابه ، وجاء أبو إسحاق المفتي في جماعته ؛ واستقرَّ بي المجلس فنفَذْتُ النَّاسَ بنظَري ، فكأنَّهم من كثرتهم نَبَاتٌ غطَّى الأرض ، فأذكرني هذا شيخَنا السَّريَّ بنَ مُغلِّسٍ السَّقَطيَّ[3] ، وكان قد لزم دارَه في بغداد ، لا يخرج منها ،

---

(١) يريد : أنه في هذه الدنيا (عملية حسابية) وفي أيام ضعفة الدِّين يكون الفقه استخراج الدراهم من النصوص . (ع) .

(٢) « إزماعي » : أزمع الأمر : مضى فيه ، وثبت عليه عزمُه ، وجَدَّ في إمضائه .

(٣) « السقط » : رديء المتاع (روبابيكيا) ، وبائعه : السَّقطي . وهذا الإمام العظيم كان=

ولا يراه إلا مَنْ قصَد إليه ، وهممتُ أن أجعلَ الموعظةَ في شرح كلمته المشهورة : « لا تَصِحُّ المحبَّةُ بين اثنين حتى يقولَ أحدُهما للآخر : يا أنا ! » . وما نقلوا عنه من أنَّه قال مرَّة لبعض أصحابه : منذ ثلاثين سنةً وأنا في الاستغفار من قولي : (الحمد لله) . فقال صاحبُه : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريقٌ ، فاستقبلني رجلٌ ، فقال : نجا حانوتُك . فقلتُ : الحمد لله ! فأنا نادمٌ من ذلك الوقت على ما قلت ؛ إذ أردتُ لنفسي خيراً من النَّاس !

قال ابن مسكين : ولكنِّي أحببتُ أن أكلِّم المفتي ، ومالَ المفتي ؛ فحدَّثتهم حديث معرفتي بالسَّريِّ : أنِّي سمعتُ يوماً (غَيْلان الخياط) يقول : إنَّ السَّريَّ كان اشترى كُرَّ لوزٍ[1] بستين ديناراً ، وأثبته في رزنامجه[2] وكتب أمامه : ربحهُ ثلاثة دنانير[3] ؛ فلم يلبث أن غلا السِّعرُ ، فبلغ تسعين ديناراً ؛ فأتاه الدَّلال الذي كان اشترى له ، فقال : أريد ذلك اللُّوز . قال الشيخ : خذه . قال : بكم ؟ فقال : بثلاثة وستين ديناراً . وكان الدَّلال رجلاً صالحاً ، فقال للشَّيخ : إنَّ اللوز قد صار الكُرُّ بتسعين . قال السَّريُّ : ولكنِّي عقدتُ بيني وبين الله عقداً لا أحلُّه ، فلستُ أبيع إلا بثلاثة وستين ديناراً . فقال الدَّلال : وأنا قد عقدتُ بيني وبين الله عقداً لا أحلُّه ، ألا أغشَّ مسلماً ، فلست أشتري منك إلا بتسعين ؛ فلا الدَّلالُ اشترى منه ، ولا السَّريُّ باعه . . !

قال أحمد بن مسكين : فلما سمعت ذلك لم تكن لي همَّةٌ إلا أن ألقى الشَّيخَ ، وأصحَبَه ، وآخذَ عنه ، فلم أُعرِّجْ على شيءٍ حتَّى كنت في المسجد الذي يصلِّي فيه ، فأجده في حَلْقته ، وعنده ممن كنتُ أعرفهم : عبدُ الله بن أحمد بن حنبل ، وإدريسُ الحدَّاد ، وعلي بن سعيد الرَّازي ، وحوله خلقٌ كثيرٌ ، وهو فيهم كالشَّجَرة الخضراء بين الهشِيم تعلوه نَضْرةُ روحه ، وكأنَّما يُمدُّه بالنُّور عِرقٌ من السَّماء ، فهو

= أوحدَ أهل زمانه في الورع ، وله كلامٌ إلهيٌّ مشرقٌ ، وقد توفي عن سنٍّ عالية في سنة (٢٥٣هـ) . (ع) .

(١) « الكر » ـ بضم الكاف ـ : مكيال عظيم يقدرون به في الحساب ، وهو أربعون إردباً مصرياً . (ع) .

(٢) أي : دفتر حسابه . (ع) .

(٣) خمسة في المئة .

يتلألأ للعين ؛ ولا يملك النَّاظر إليه إلا أن يُحِسَّ في ذاتِ نفسه : أنَّه الأدنى ، من رؤيته في ذاتِ نفسِه : أنَّ هذا هو الإنسانُ الأعلى .

ورأيتُ على وجهه آلاماً تمسحُه مِسْحةَ الأشواق لا مِسْحَةَ الآلام ، آثارُ ما يجدُه في روحه القويّة ، لا كآلام النَّاسِ ؛ التي هي آثار الحرمان في أرواحهم الواهنة الضَّعيفة ، فلا تمسح وجوهَهم إلا مِسحَةُ الغمِّ والكآبة .

وما يخطئ النَّظر في تمييز آلام السَّماء على هذه الوجوه السَّعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى ، فإنَّ الأولى تَتَنَدَّى على رُوح النَّاظر بمثل الطَّلِّ ؛ إذا قَطَّرَهُ الفجر ، والأخرى تَتَثَوَّرُ في روحه كما تَهيجُ الغَبَرَةُ ؛ إذا ضربت الرِّيحُ الأرض .

كان الشَّيخُ في وجودٍ فوق وجودنا ؛ فلا تتلوَّن له الأشياء ، ولا تعدو عنده ما هي في نفسها ، ولا يحملُ الشَّيء له إلا معناه من حيث يَصلُح ، أو لا يصلُح ، ومن حيث ينبغي ، أو لا ينبغي . فإنَّما تتلوَّن الأشياء عندما يضع الشَّيطانُ عينَه في عين النَّاظر إليها ، وإنَّما تزيد ، وتنقُص في القلب عندما يكونُ روحُ الشيطان في القلب ، وإنَّما يَشتبِه ما ينبغي وما لا ينبغي عندما يأتي الشَّيء من جهتين : جهتِهِ من طبيعته هو ، وجهتِهِ من طبيعتنا نحن . وبهذا قد يجمع الإنسانُ المالَ ثُمَّ لا يجد في المال معنى الغنى ، وقد تتَّفقُ أسباب النَّعيم ، ولا يكون منها إلا الذُّلّ . وكم من إنسانٍ يجدُ وكأنَّه لم يجدْ إلا عكسَ ما كان يبغِي ، وآخَرَ لم يجدْ شيئاً ، ووجد بذلك راحتَه .

* * *

قال ابنُ مسكين : وما كان أشدَّ عجبي حين تكلَّم الشَّيخ ، فقد أخذ يُجيب عَمَّا في نفسي ، ولم أسأله ، كأنَّ الَّذي في فكري قد انتقل إليه ؛ فروَى الحديث : « إذا عظَّمَتْ أمتي الدِّينارَ والدِّرهم ؛ نُزِعَ منها هيبةُ الإسلام ؛ وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر ؛ حُرموا بَرَكَةَ الوحي »[1] . ثمَّ قال في تأويلِهِ :

إنَّ مَلَكَ الوحي ينزل بالأمر والنَّهي ليُخضعَ صَوْلَةَ الأرض بصَولة السَّماء ، فإذا بقي الأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر ؛ بقي عملُ الوحي ؛ إلا أنَّه في صورة العقل ، وبقيت روحانيةُ الدُّنيا ؛ إلا أنَّها في صورة النِّظام ، وكان مع كل خطأ

(١) سبق تخريجه .

تصحيحُه ؛ فيصبحُ الإنسانُ بذلك تنفيذاً للشَّريعة بين آمرٍ مُطاع ، ومأمورٍ مطيع ، فيتعامل النَّاس على حالةٍ تجعل بعضَهم أستاذاً لبعض ، وشيئاً منهم تعديلاً لشيءٍ ، وقوةً سنداً لقوَّة ؛ فيقومُ العزمُ في وجه التَّهاون ، والشِّدَّة في وجه التَّراخي ، والقدرةُ في وجه العجز ، وبهذا يكونون شركاء متعاونين ، وتعودُ صفاتُهُم الإنسانيَّةُ ، وكأنَّها جيشٌ عاملٌ يناصرُ بعضُه بعضاً ، فتكونُ الحياة مفسَّرةً ما دامت معانيها السَّاميةُ تأمرُ أمرَهَا ، وتُلهِمُ إلهامَها ، وما دامت ممثَّلةً في الواجب النَّافذِ على الكلِّ .

والنَّاس أحرارٌ متى حكمتْهم هذه المعاني ، فليست حقيقةُ الحرِّيَّة الإنسانيَّة إلا الخضوعَ للواجب الذي يحكم ، وبذلك لا بغيرِه يتَّصلُ ما بين الملكِ والسُّوقةِ ، وما بين الأغنياء والفقراء اتِّصالَ الرَّحمة في كلِّ شيءٍ ، واتِّصالَ القَسوةِ في التأديب وحده . فبركةُ الوحي إنَّما هي جعلُ القوَّة الإنسانيةِ عملاً شرعيّاً لا غير .

أمَّا تعظيمُ الأمَّة للدُّنيا والدِّرهم ، فهو استعبادُ المعاني الحيوانيَّة في النَّاس بعضِها لبعضٍ ، وتقطُّعُ ما بينَهم من التَّشابُكِ في لُحْمةِ الإنسانيَّة ، وجعلُ الكبير فيهم كبيراً وإن صَغُرَتْ معانيه ، والصَّغيرِ صغيراً ، وإن كَبِر في المعاني ؛ وبهذا تموجُ الحياة بعضُها في بعضٍ ، ولا يستقيم النَّاسُ على رأيٍ صحيحٍ ؛ إذ يكونُ الصَّحيحُ ، والفاسدُ في مِلْكِ الإنسان لا في عملِ الإنسان ، فيكنز الغنيُّ مالاً ، ويكنز الفقيرُ عداوةً ، كأنَّ هذا قَتَل مالَ هذا ، وكأنَّ أعمالاً قتلت أعمالاً ، وترجعُ الصِّفاتُ الإنسانيَّةُ متعاديةً ، وتُباع الفضائلُ ، وتشترى ، ويزيد من يزيدُ ؛ ولكن في القسوة ، وينقُصُ من ينقص ، ولكن في الحرية ، وتكون المنفعةُ الذَّاتيةُ هي الَّتي تأمرُ في الجميع ، وتنهَى ، ويدخُل الكذبُ في كلِّ شيءٍ حتَّى في النَّظرِ إلى المال ، فيرى كلُّ إنسانٍ كأنَّما دِرْهمهُ ، وديناره أكبرُ قيمةً من دينارِ الآخر ، ودرهمه ، فإذا أعطى ؛ نقَص فغَشَّ ، وإذا أخذ زاد ، فسَرَق ؛ وتُصبح النُّفوسُ نفوساً تجاريَّةً ، تُساوِمُ قبلَ أن تنبعثَ لفضيلةٍ ، وتُماكِسُ ؛ إذا دُعِيتْ لأداء حقٍّ ، ويتعامل النَّاسُ في الشَّرف على أصولٍ من المَعِدة لا من الرُّوح ، فلا يقالُ حينئذٍ : إنَّ رغيفين أكثرُ من رغيفٍ واحدٍ . كما هي طبيعة العدد ، بل يقال : إنَّ رغيفين أشرفُ من رغيفٍ . كما هي طبيعة النِّفاق .

أمَّا التِّجارةُ ـ وهي التَّفسيرُ الظاهرُ لمعاني النفوس ـ فتُصبح بين الغِشِّ

والضَّررِ ، والمماكَرَة ، وتكونُ يقظَةُ التَّاجر من غفلة الشَّاري ، وتَفسُدُ الإرادةُ ، فلا تُحدِثُ إلا آثارَها الزَّائغة . وما التَّاجرُ في الأمة القوية إلا أستاذٌ لتعليم الصِّدق ، والخُلق في الموضع المتقلِّب ، فكلمتُه كالرَّقْم من العدد لا يحتملُ أزيدَ ، ولا أنقصَ ممَّا فيه ، ويُمتَحَن بالدُّنيا والدِّرهم أشدَّ مما يُمتحن العابدُ بصلاته ، وصيامه . وقد شهد رجلٌ عند عمر بن الخطاب في قضيةٍ ، فقال له عمر : ائتني بمن يعرفك ! فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنتَ جارُه الأدنى الذي يعرفُ مَدْخَلَه ، ومخرجَه ؟ قال : لا ! قال : فكنت رفيقه في السَّفر الذي يُستدلُّ به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ! قال : فعاملتَه بالدِّينار ، والدِّرهم ؛ الذي يَستبِينُ به ورَعُ الرَّجل ؟ قال : لا !

قال عمر : أظنُّك رأيتَه قائماً في المسجد يُهَمْهِمُ بالقرآن ، يَخفِضُ رأسَه طوراً ، ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم !

قال : فاذهب ، فلستَ تعرفه !

وإنَّما التَّاجرُ صورةٌ من ثقة النَّاس بعضِهم ببعضٍ ، وإرادةِ الخير ، واعتقادِ الصِّدق ، وهو في كلِّ ذلك مظهرٌ توضَعُ اليدُ عليه ، كما تَجُسُّ اليدُ مرضَ المريض وصحَّتَه .

فإذا عظَّمَتِ الأمَّة الدِّينارَ ، والدِّرهم ، فإنَّما عظَّمت النِّفاقَ ، والطَّمعَ ، والكذب ، والعداوةَ ، والقسوةَ ، والاستعباد : وبهذا تقيم الدَّنانير ، والدَّراهم حُدوداً فاصلةً بين أهلِها ، حتَّى لتكون المسافةُ بين غنيٍّ ، وفقيرٍ كالمسافة بين بلدين قد تباعَدَ ما بينهما . وإنَّما هيبةُ الإسلام في العزَّة بالنَّفس ، لا بالمال ، وفي بذلِ الحياة ، لا في الحِرْصِ عليها ، وفي أخلاقِ الرُّوح ، لا في أخلاق اليد ، وفي وضع حُدود الفضائل بين النَّاسِ ، لا في وضع حُدود الدَّراهم ، وفي إزالةِ النَّقائص من الطِّباع لا في إقامتها ، وفي تَعَاوُن صفاتِ المؤمنين ، لا في تَعادِيها ، وفي اعتبار الغنى ما يُعْمَلُ بالمال ، لا ما يُجمَعُ من المال ، وفي جعلِ أوَّل الثروة العقلُ والإرادةُ ، لا الذَّهبُ والفضَّة .

هذا هو الإسلامُ : الذي غلَبَ الأمم ؛ لأنَّه قبلَ ذلك غَلَبَ النَّفسَ ، والطَّبيعة .

* * *